العرب ونظرية الحقول الدلالية

د.- شلواي عمار

قسم الأدب العربي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص:

الحقل الدلالي، كما يعرف الآن، هو مجموعة من الوحدات المعجمية تشتمل على مفاهيم تندرج تحت مفهوم عام يحدد الحقل، أو هو قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرات. فهذه الفكرة، أي فكرة تقسيم الألفاظ تبعا لمدلولاتها إلى محاور وموضوعات قد تفطن إليها علماء اللغة العربية منذ القديم بل الأكثر من ذلك أنهم حاولوا تطبيقها، فألفوا رسائل أو معاجم صغيرة – إن صح– التعبير في الخيل والإبل والمطر والنبات...إلخ. وهذه المحاولات وإن كانت تؤكد سبق التفكير العربي في هذا المجال فإنها لا ترقى إلى النظرية الدلالية الحديثة، وهذا ما سنحاول طرحه في هذا المقال.

المعجم ودلالة الألفاظ

إذا كان علم المعجم يهتم بالدلالة المعجمية ، فإن الغرض منه ، في البداية عند واضعي المعاجم العربية ، وصف المضامين الدلالية للمفردات التي جمعوها ، في المرحلة الأولى معتمدين في ذلك على مصدرين :

– الركام الهائل من الأخبار المنقولة ،إليهم من العصر الجاهلي على شكل أشعار وروايات شفوية .

– النصوص التي تميز بها العصر الإسلامي ، و على الخصوص القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف و الشعر.

فهذا التجميع للألفاظ على شكل معاجم مر بمرحلتين :

1– مرحلة الرسائل :

و تقوم على معيارين : أبجدي يوضح معنى الألفاظ المشتركة في حرف معين ، و دلالي يبين معنى المفردات التي تدور حول مفهوم معين(1).

و في هذا المجال الأخير، وضعوا رسائل لغوية كثيرة على شكل مجموعات دلالية تتعلق كل منها بموضوع مفرد، كالإبل، و الشاه ، و الفرق ، و النبات، و الشجر ، و الخيل ، و الوحوش ، و خلق الإنسان للأصمعي ، و اللبن و المطر ، و الشجر ، لأبن زيد الأنصاري ، و النبات ، لأبي حنيفة الدينوري ، و الخيل لأبي عبيدة(2).

و تشكل رسائل " اللبن و المطر " لأبي زيد الأنصاري ، و " النبات و الشجر " للأصمعي ، و " الخيل " لأبي عبيدة ، أهم الأعمال التي طبعت هذه المرحلة التي ساهمت، بل كانت الأساس ، في وضع اللبنة الأولى ، للمعاجم العربية ، كما عرفت فيما بعد(3).

وتعد كتب الحشرات ، هي أولى الرسائل من حيث الظهور و قد يرجع ذلك ، إلى التأثر بالقرآن الكريم الذي أشار إلى طائفة من الحشرات كالنحل و النمل و الذباب و العنكبوت و الجراد و البعوض ، تناولها المفسرون و بحثوا و تكلموا فيها كثيرا ، مما أدى إلى لفت انتباه اللغويين إليها فألفوا في ذلك(4).

و تتابعت الرسائل الموضوعية، بعد ذلك ، و كثرت و تنوعت، فظهرت الرسائل اللغوية ، في الإبدال و الأبنية ليونس بن حبيب وابن مرار الشيباني ، و الفراء، كما ظهرت موسوعة (الغريب المصنف) ، لعبيد القاسم بن سلام ، و لم تتأخر عن ذلك رسائل البلدان و المواضع(كجبال العرب) لخلف الأحمر و (منازل العرب) لابن مطرف و (البلدان) لابن هشام الكلبي .... و بلغ العرب في هذا المجال ، الغاية و المبتغى(5) .

2- مرحلة المعاجم :

و تعتبر مرحلة التأليف الغزير ، في موضوع دلالة الألفاظ ، و فيها جمعت مواد الرسائل بإتقان و إحكام ، ووضعت في معاجم متعددة ، يمكن توزيعها ، كالآتي :

* المعاجم الصوتية: وهي التي ترتب الكلمات ، تبعا للمخارج الصوتية ، و طريقة التقاليب ، و يمثلها ، كتاب " العين " للخليل بن أحمد ، و " تهذيب اللغة " للأزهري ، و " المحكم " لابن سيده الأندلسي.

* المعاجم الهجائية: وهي التي تعتمد على الترتيب الأبجدي (بحسب الأصل الأخير أو الأول للكلمة) مثل " الصحاح " للجوهري و " لسان العرب " لابن منظور و " القاموس المحيط " للفيروزبادي و " أساس البلاغة " للزمخشري .

*المعاجم المضمونية (الموضوعية): و هي المرتبة حسب المعاني(6) والمقصودة في هذا المجال الدراسي، و تسمى أحيانا ، معاجم المتوارد أو معاجم تداعي المعاني ، و هي

الفصيلة من المعاجم التي يلجأ إليها الباحث لا عندما يعسر عليه المعنى، بل عندما يستعصي عليه لفظ يوافق معنى يدور في خاطره[7] ، و منها : " جواهر الألفاظ " لقدامة بن جعفر و " الألفاظ الكتابية " للهمذاني و " متخير الألفاظ " لابن فارس و " مبادئ اللغة " للإسكافي و فقه اللغة " للثعالبي و " الأشباه و النظائر " لأبي البركات بن الأنباري و " درة الغواص في أوهام الخواص " للحريري ، و" المعرب " للجواليقي و " المخصص " لابن سيدة الأندلسي[8] .

و تعد هذه المعاجم الدلالية مدارس أو موضوعات قائمة بذاتها ، ورائدها أبو عبيد القاسم بن سلام(ت224هـ) ، الذي ألف رسائل كثيرة، كالخيل و كتاب خلق الإنسان واللبن ....ثم جمعها في كتابه " الغريب المصنف " ثم ابن سيده الأندلسي (ت 458 هـ) في كتابه " المخصص " الذي توسع فيه كثيرا ، ثم تبعها الراغب الإصفهاني (ت 503هـ) في مفردات القرآن[9].

و يبدو ، مما سبق، أن اللغويين العرب تفطنوا في وقت مبكر ، إلى فكرة الحقول الدلالية من خلال تأليفهم للرسائل ثم للمعاجم الموضوعية أوالتجانسية[10] بعد ذلك ، غير أن الهدف من هذا كان تعليميا بالمعنى الواسع ، لهذه الكلمة ، إذ المعجم من هذا النوع ، يعتبر أداة عملية تمد الكاتب بالكلمات التي يراها أكثر ملاءمة من غيرها لعرض أفكاره في دقة و أناقة حول موضوع محدد[11].

و قد صرح أصحاب هذه المعاجم ، بذلك مباشرة ، فالهمذاني مثلا يقول في مقدمة كتابه " الألفاظ الكتابية ": " وجدت من المتأخرين في الآلة ، قوما أخطأهم الاتساع ، في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطبتهم و كتبهم ، باللفظة الغريبة ،و الحرف الشاذ....و ألفيت آخرين .....يمزجون ألفاظا يسيرة حفظوها ، من ألفاظ كتاب الرسائل، بألفاظ سخيفة من ألفاظ العامة ، استعانة بها و ضرورة إليها ، لخفة بضاعتهم و لا يستطيعون تغيير معنى ،

بغير لفظه ، لضيق وسعهم ....فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناسا ، من ألفاظ كتاب الرسائل و الدواوين البعيدة، من الاشتباه و الالتباس ، السليمة من التقصير ....البعيدة المرام ، على قربها من الأفهام و الأذهان و الخواطر ، في كل فن من فنون المخاطبات ....فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها ، في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها ، في المحاورة ، إما مجانسة أو بمجاورة ، فإذا عرفها العارف ، بها و بأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية و عونا و ظهيرا "(12) .

كما قال ألوسي زادة ، في مقدمته لهذا الكتاب:(هذا الكتاب الجليل الذي ليس له ، في بابه ، مثيل ، يحتاج إليه كل كاتب نبيل و أديب يطلب التفنن ، في الأقاويل)(13).

و قد صرح ابن سيده بمثل هذا ، في مقدمة " المخصص " الذي يعد أول معجم موضوعي ، في الغرب الإسلامي(14) ، إذ يقول :" لما وضعت كتابي الموسوم ، بالمحكم مجنسا لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة ، أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبوبا ، حين رأيت ذلك أجدى ، على الفصيح المدره ، و البليغ المفوه ، و الخطيب المصقع و الشاعر المجيد المدقع ، فإنه إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة و للموصوف أوصاف عديدة ، تنقى الخطيب و الشاعر منهما ما شاء ، واتسعا فيما يحتاجان إليه ، من سجع أو قافية على مثال ما نجده نحن في الجواهر المحسوسة كالبساتين تجمع أنواع الرياحين ، فإذا دخلها الإنسان ، أهوت يده ، إلى ما استحسنته حاستا نظره و شمه"(15) .

و يعد " المخصص " أشمل معجم مرتب حسب المعاني(16) ، و له أهمية خاصة لوفرة مادته و إحكام بنيته و نضج منهجه ، فهو يضم سبعة عشر جزءا ، و يتألف من كتب تندرج فيها أبواب و تحمل الكتب أحيانا الأسماء نفسها ، التي عرفت بها مؤلفات قديمة، هذه الأبواب تختلف من حيث حجمها اختلافا واضحا ، و تدور حول خمسة

موضوعات : الوجود " الإنسان و مظاهره " ، " الحيونات " ، " الطبيعة بعامة و النبات بخاصة " ، " والإنسان في المجتمع " ، " والمسائل النحوية و الصرفية "(17).

و قد اعتمد ، في هذا كله، على تجميع الكلمات حول بعض المحاور الرئيسة والمختلفة من حيث الطول ووفرة المادة ، و التي يتجه إليها و يدور حولها مضمون (الكتاب) أو (الباب). و قد سار في ذلك على أساس التدرج المعتمد على المنطق و العقل ، و يوضح ذلك من خلال قوله:" فأما فضائل هذا الكتاب ، من قبل كيفية وضعه ، فمنها تقديم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص ، و الإتيان بالكليات قبل الجزئيات ، و الإبتداء بالجواهر والتقفيه بالأعراض على ما يستحقه من التقديم و التأخير ، و تقديمنا كم على كيف ، وشدة المحافظة على التقييد و التحليل "(18).

و هكذا يتضح الإتقان و الإحكام ، في هذا الكتاب ، رغم ضخامة المادة اللغوية وتنوعها حيث استطاع ابن سيده ، بفضل منهجه أن يحافظ على وحدة هذا الكتاب و بنيته ، و قد نجح في ذلك عندما اتخذ ، من الإنسان، محور معجمه الأول ، و مركز التنسيق فيه ، حيث أدار حول الإنسان ، و بكيفية منطقية متدرجة ، مختلف الموضوعات بروية فيها سداد ، و إحكام بالنسبة لعصره ، أتاحت له إضافاته المتوالية أن يساير حياة الإنسان ، خطوة خطوة ، من المهد أو قبله ، ويدرس جوانب مختلفة من نشاطاته المتنوعة إجتماعية ، دينية ، فكرية ، و مادية و هذا ما سمح لابن سيده ، بالقيام بمثل هذا البناء المثير للإعجاب(19).

و الملاحظ للمخصص يدرك التشابه بينه ، و بين المعجمات الموضوعية الحديثة – مع الفارق الزمني – فهو يقدم لنا مثل هذه المعجمات ، في إطاره العام ، و في تقسيمه وتوزيعه للمادة اللغوية في خانات ، وفق تقارب الموضوع ، فمنهجه قد نضج بشكل ملحوظ في المعجمات الموضوعية التي سبقته ، غير أنه لا يمكن إنكار فضل ابن سيده ،

فهو أول من أدخل هذا اللون من المعاجم ، إلى الغرب الإسلامي ، ففاق من حيث ضخامته و ضبطه التجارب الأولية ، في الشرق ، و سبق أوربا التي لم ينضج فيها هذا النوع ، إلا حين نشر روجي" معجمه لكلمات اللغة الإنجليزية وعباراتها سنة(1852) ، و" بواسير لمعجم الكلمات المتناظرة في" الفرنسية[20] والموسوم بالمعجم القياسي للغة الفرنسية سنة (1885) ، ومعجم اللغوي الألماني دورنزايف بعنوان " الكلمات الألمانية في مجموعة مبوبة، سنة 1933.

و من خلال ما سبق يتضح دور العرب و اهتمامهم المبكر، بالظواهر الدلالية وبصفة خاصة ما يتصل بالمعاجم الموضوعية ، إلا أن ذلك لم يصل بطبيعة الحال ، إلى ما يمكن أن يسمى " بالنظرية الدلالية " كما يتناوله البحث اللغوي الحديث ، فأصحاب المعاجم الموضوعية ، لم يكونوا على وعي بنظرية " الحقول الدلالية " و كان الهدف من معاجمهم تعليميا ، و كعامل مساعد ، للمؤلف و الشاعر ...الذي تعوزه الألفاظ ، فيلجأ إليها بحثا عن ضالته ، و هذا ينطبق على معجم " روجيه " و " دورنزايف " و" وبواسير".

غير أن الدلالية ، منذ " سوسير " تغير هدفها ، و صارت مهمتها الأساسية ، بناء " علم للمدلولات " موازن لوصف الدوال وصفا علميا. ولم يتجه إلى الاهتمام بالحقول الدلالية على شكلها الحالي إلا بعد أن أقر " سوسير" بوجود علاقة دلالية بين عدد ما من مدلولات بعض الألفاظ ، خاصة عندما لفت الانتباه إلى ما سماه – الروابط التشاركية– الموجودة بين وحدات مثل(خشي، توجس، خاف) فهذه الكلمات ، في نظره، رغم قلتها تشكل مجموعة دلالية صغيرة يضمها مفهوم عام وهو الخوف وكذلك بعد أن قام " ترايرِ" بدراسة تنتمي إلى القطاع المفهومي تناول فيها مفردات المعرفة في اللغة الألمانية الوسيطة .

الهوامش :

(1) الغالي أحرشاو، الطفل واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993،ص48.

(2) رمضان عبد التواب ، فصول في فقه اللغة العربية ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط1983،2 ، ص 230 ، 238.

وانظر : حسين نصار ، المعجم العربي ، نشأته و تطوره ، دار مصر للطباعة، القاهرة، جـ 1 ، ط2، 1968، ص 122.

– محمود فهمي حجازي ، أسس علم اللغة ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1972 ص 99.

(3) إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو مصرية، ط5، 1984، ص 226 –228.

(4) حسين نصار (م.س) ، جـ 1 ، ص 123.

(5) توفيق محمد شاهين ، علم اللغة العام دار التظامن للطباعة، القاهرة، ط1، 1980، ص 169 ، 170 .

(6) إبراهيم أنيس ، (م، س)، ص231 و انظر رمضان عبد التواب ، فصول في فقه اللغة، ص 229 –230.

MOUTAOUAKIL (A) : Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée Linguistique Arabe, Faculté de lettres et sciences humaines de Rabat, P28.29.

(7) حسن ظاظا ، كلام العرب ، من قضايا اللغة العربية ، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1976. ص 149.

(8) إبراهيم أنيس (م.س) ، ص 231 ، و انظر : – توفيق محمد شاهين (م.س) ، ص 173.

(9) توفيق محمد شاهين (م.س) ، ص 173.

(10) حسن ظاظا ، (م.س) ، ص 148 ن و يمكن النظر إلى :

– رمضان عبد التواب ، فصول في فقه اللغة ، ص 230 ، 231 .

– محمود فهمي حجازي ، أسس علم اللغة ، ص 99.

– حسين نصار ، المعجم العربي نشأته و تطوره ، جـ 1 ، ص 122–134.

(11) داريو كابانيلاس ، (م.س) ابن سيدة المرسي ، حياته و آثاره ، (ت . حسن الوراكلي)، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1980 ، ص 113.

(12) عبد الرحمن بن عيسى الهمداني ، كتاب الألفاظ الأشباه والنظائر (ت . البدراوي زهران) دار المعارف القاهرة ، ط 2 و ص 96، 97.

(13) نفسه ، ص 89.

(14) داريو كابانيلاس رودريجيت (م.س) ، ص 23.

(15) المخصص ، 1/ 10.

(16) إبراهيم أنيس ، (م.س) ن ص 231.

(17) داريوا كابانيلاس ، (م.س) ، 116 ، 118 ، 128 .

(18) المخصص ، 1 / 10

(19) داريو كابانيلاس (م.س) ، ص 124 ، 125 .

(20) نفسه ، ص 125 ، 126.